الإنتاج الفكري الجزائري
في عهد الدولة الرستمية

د .معروف بلحاج
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة أبي بكر بلقايد – تلمسان –

لا شك أنّ المجهودات التي بدلها الأئمة الرستميون في سبيل تنشيط الحركة الفكرية في ربوع دولتهم من تشييد للمساجد والدور العلمية وجلب الكتب من المشرق واهتمامهم بالعلم وأهله كان له أثره الكبير في تفعيل المجال العلمي ، وهذا لا يدهشنا كثيرا إذا ما علمنا أنّ من بين الشروط التي تؤخذ بعين الاعتبار عند اختيار الإمام ومبايعته أن يكون عالما ورعا ، وهذا ما لمسناه حقيقة عند أغلب الأئمة الرستميين الذين تداولوا على العرش ولا سيّما الأوائل منهم ، فالإمام عبد الرحمن بن رستم (160 – 171 هـ)كان من حملة العلم الذين أخذوا العلم عن شيخ الإباضية الثاني في البصرة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي أجاز لعبد الرحمن الاجتهاد دون غيره ممن كانوا معه [1] .

ولكن لم ابن الصغير يشر إلى كتاب قام بتأليفه الإمام الرستمي الأوّل ، إلاّ أنّ المصادر الإباضية تنسب إليه تصنيفين أحدهما في التفسير [2] والثاني يشمل خطبه [3] .

وقد سار الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن (171 – 208 هـ) على خطى أبيه فكان عالما ، وينسب إليه ابن الصغير كتابا بعنوان مسائل نفوسة الجبل ،حيث كتبت إليه نفوسة في مسائل أشكلت عليها فأجابها [4] ، وكان هذا الكتاب مشهورا عند الإباضية ومتداولا بينهم . وكان شغف عبد الوهاب كبيرا بالعلم

و الاستزادة منه إلى درجة أنه صرف مبلغا عظيما يقدر حسب أبي زكرياء بألف دينار في سبيل جلب الكتب من المشرق (5) .

وتشير المصادر الإباضية إلى أنّ الإمام الثالث أفلح بن عبد الوهاب (208 – 258هـ) كان قبل توليه عرش الإمامة يقعد بين يديه ثلاث حلقات في علم الفقه والكلام واللغة (6) وله جوابات حول مسائل فقهية فقهية ، وقد نقل الوارجلاني عن هذا الإمام روايات في الحديث وهذا دليل آخر على الدرجة التي بلغها في علم الحديث كما ضلع في الشعر .

وقد سار على درب الأئمة السابقين الإمام اليقظان بن افلح (261 – 281 هـ) الذي تنسب إليه المصادر الإباضية كتابا في الاستطاعة يقع في أربعين مجلدا (7)، ولكنه لم يصل إلينا . ولعل ما نقله ابن الصغير عن هذا الإمام دليل واصح على اهتمامه البالغ بالعلم والعلماء فيقول : << أنّ أبا اليقظان بن أفلح ضرب سرادقه مرّة خارج المدينة فلمّا علم الناس بذلك خرج إليه الفقهاء والقراء وضربوا أبنيتهم حول سرادقه >> (8) .

إنّ هذا الجو العلمي السائد في الأسرة الرستمية الحاكمة لا بدّ أن يكون له تجاوبا من قبل أفراد المجتمع فبرز علماء أجلاء في مختلف مجالات العلوم النقلية والعقلية .

وفي ظلّ هؤلاء الأئمة العلماء الذين ساهموا بقسط كبير في تفعيل النشاط الثقافي بفكرهم واجتهادهم في جلب أسباب التطور العلمي ، برزت داخل المجتمع التيهرتي مجموعة لا بأس بها من العلماء الفطاحل في مختلف العلوم والمعارف فحتى بعض الأئمة الرستميين حسبما يُفهم من المصادر الإباضية كانت لهم مساهمات علمية أغنت مكتبة تيهرت المعروفة باسم المعصومة .

وسنحاول هنا الوقوف عند بعض المجالات العلمية لتبيين ذلك النشاط الفكري السائد في ظلّ الدولة الرستمية والتعرّف على أولئك العلماء الذين حملوا مشعل العلم والنور والدور الضي كانوا يؤدّونه لتفعيل الجو الثقافي .

1 – التفسير :

كان اهتمام العلماء المسلمين كبيرا بالقرآن الكريم كونه المصدر الأساسي للتشريع الإسلامي ، ومن هنا فقد تفرّ غ بعضهم لتفسيره قصد تيسير وتسهيل فهمه على العرب . وبما أنّ المجتمع الرستمي كانت معظم تركيبته البشرية من الجنس البربري فقد كان احتياجه أكبر إلى فهم ما جاء في القرآن الكريم لذا فقد انصرف اهتمام بعض العلماء إلى هذا العلم فبرز فيهم محمد بن يانس الذي أرسلته قبيلة نفوسة بدعوة من الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن ليناظر المعتزلة في تيهرت [9] .

وقد قام لواب بن سلام بتفسير جزء من سورة الشورى في كتاب شرائع الدين ويبدو أنّه اعتمد في تفسيره على الحسن البصري وابن عباس [10] .

وتنسب المصادر الإباضية كما ذكرنا ذلك سابقا لعبد الرحمن بن رستم تأليفا في علم التفسير كان متداولا في قلعة بني حماد وقد تنافس على اقتنائه الإباضية من الوهبية والنكارية [11] ، ولكن يبقى هذا الكتاب إلى حدّ الساعة من المصادر المفقودة .

ويعدّ كتاب هود بن محكم الهواري الكتاب الإباضي الوحيد الذي وصل إلينا في علم التفسير والذي يعود إلى القرن الثالث الهجري وقد قام شريفي بلحاج بتحقيقه[12] .

2 – الحديث :

لم نجد إشارة في المصادر الإباضية إلى مؤلفات إباضية في مجال علم الحديث تعود إلى الفترة التاريخية التي نحن بصدد البحث فيها ، ويبدو أنّ الإباضية لم يعطوا اهتماما كبيرا لهذا العلم ولكن يمكن أن نستشف بعض أسماء رواة الحديث من خلال السلسلة التي نقلها الشماخي صاحب السير فيذكر مثلا الشيخ أبي المنيب محمد بن يانس الذي روى عن حملة العلم .

أمّا علماء الحديث من غير الإباضية فقد قدّمت تيهرت العديد من حفاظ الحديث وروّاته نذكر منهم أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الوناتي التيهرتي الذي ولد بتيهرت سنة 200 هـ وتوفي بها سنة 296 هـ وقد روى

عنه القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن ، ولا شك أنّ بعض العلماء الذين أخذوا العلم عن هذا العالم كانوا من المحدّثين ومنهم ولده عبد الرحمن وقاسم بن إصبع الذي ألّف مسند مسدد بن مسرهد عن بكر وأبو عبد الله محمد بن صالح القحطاني المعافري الأندلسي وقاسم بن عبد الرحمن بن عبد الله بن محمد التيهرتي التميمي الذي كان من جلساء بكر بن حماد وقد رحل إلى الأندلس سنة 317 هـ وأقام بها حتى وافته المنية . ومن علماء الحديث كذلك أبو سعيد بحيج بن خداش توزري الذي انتقل إلى نفزوة وتوفي بها سنة296 هـ وقد روى الحديث عن محمد بن سحنون وروى عنه أبو العرب محمد بن أحمد بن محمد بن تميم صاحب طبقات علماء إفريقية [13] .

3 – الفقه :

يبدو أنّ التنافس كان على أشدّه بين المذاهب الإسلامية داخل تيهرت حسبما أشار إلي ذلك ابن الصغير في قوله : >> ومن البلد من فقهاء الإباضية وغيره لم يطالب بعضهم بعضا ولا سعى بعضهم ببعض .. إلى أنّ الفقهاء تناحبت المسائل فيهم <<[14] فذلك التنافس كان على شكل مناظرات بين الإباضية والمالكية والحنفية والمعتزلة والصفرية ، ولا شك أنّ هدا الجو التنافسي كان له أثره في توجيه اهتمام العديد من العلماء إلى هذا العلم فبرز منهم الكثير .

لقد كان من بين المهتمين بالفقه الإمام الثاني عبد الوهاب بن عبد الرحمن الذي ألّف كتابا سماه مسائل نفوسة يجيب فيه على أسئلة النفوسيين التي جاءت في حوالي ثلاثمائة سؤال وقد كان هذا الكتاب مشهورا لدى الإباضيين ومتداولا بينهم [15] .

وعلى نفس المنهج ألّف الإمام أفلح بن عبد الوهاب كتاب الجوابات الذي يجيب فيه كذلك على أسئلة فقهية وما زال هذا الكتاب عبارة عن مخطوط يشتمل على ثمانين ورقة [16] ويحتاج إلى التحقيق

وبفضل ابن الصغير مؤرّخ الدولة الرستمية استطعنا التعرف على مجموعة من الفقهاء الإباضيين ويأتي في مقدمتهم الفقيه أبو عبيدة الأعرج الذي قال عنه أنّه

كان عالما بالفقه والكلام والوثاق و النحو واللغة ويفهم منه أنّه كان معاصرا للإمام أبي اليقظان (261 – 281 هـ)[17] .

وقد نبغ في مجال الفقه أيضا حسب ابن الصغير العالم الإباضي عبد العزيز بن الأوز وعيسى بن فرناس النفوسي وأبو الربيع سليمان وعثمان بن أحمد بن يحياج [18] .

ولا يمكن أن ننسى في هذا المقام جهود حملة العلم الفقهية الذين عاصروا الدولة الرستمية في بداية ظهورها مثل إسماعيل بن درار الغدامسي الذي أدّى دورا هاما في التعليم ونشر الفقه الإباضي ,ايضا داوود القبلي النفزاوي الذي أخذ عنه الإمام عبدالوهاب العلم[19] .

لم تكن تيهرت المدينة الرستمية الوحيدة التي كانت تحتضن الفقهاء فقد ظهر في جبل نفوسة عدد من الفقهاء كأبي زكرياء التوكيتي الذي عرّف من قبل الدرجيني بقوله << الجبل هو أبو زكرياء وأبو زكرياء هو الجبل >> [20] ، وكان من علماء الخمسين الأولى من المائة الثانية للهجرة وقد عاصر هذا الفقيه أبو مرداس بن مهاصر السدراتي العالم في أحكام الدماء . ومن فقهاء نفوسة أيضا نجد أبا ميمون الجيطالي وأبا محمد بن الخير الذي اشتهر بعلمه حتى صار يضرب به المثل فقيل : << من ضيع كتابا كمن ضيع خمسة عشر عالما مثل عبد الله بن الخير>> [20] .

كما برز في وارجلان (ورقلة) فقهاء آخرون نخصّ بالذكر هنا الفقيه يعقوب بن يوسف بن سهلون السدراتي المعروف بالطرفي الذي وصفه الدرجيني بذي الجهادين الأكبر والأصغر [21]. إنّ معظم هؤلاء العلماء لم يتركوا مصنفات أو بالأحرى لم تصل إلينا مؤلّفاتهم ، و ممّا لا يدعو إلى الشك فيه أنّهم ساهموا في إثراء الفقه الإباضي باعتبارهم من العلماء الأوائل الذين نشروا المذهب في ربوع المغرب الإسلامي .

وكان إلى جانب هؤلاء الفقهاء الإباضيين طائفة من الفقهاء غير الإباضيين ومنهم أبو مسعود وأبو دنون الكوفيين وأبو الفضل العباس بن محمد الصوّاف الغدامسي الذي توفي سنة 309 هـ [22] .

لا يمكن أن ننصرف من الحديث عن الفقه دون التعرّض إلى القضاء لما له من علاقة وطيدة به لا سيما إذا علمنا أنّ من شروط تولي مهمّة القضاء بلوغ درجة عالية في الفقه والفتوى ، ولا شك أنّ أعظم قاض شهدته الدولة الرستمية عمروس بن فقح النفوسي الذي تولّى القضاء في جبل نفوسة في عهد الإمام أبي حاتم ويصف الدرجيني هذا العالم بالبحر الزاجر المبرّز أوّل السبّاق وهو الآخر الضابط الحافظ ...الخ [23] وله تصانيف عديدة في الفقه منها في الأمور التي لا يسع الناس جهلها ومنها في الأصول والفروع وأبرز تصنيف يعرف باسم العمروسي [24] .

4 – النحو :

لاشك أنّ اهتمام الإباضية باللغة العربية قد تولّد عنه نبوغ بعض العلماء في مجالاتها المختلفة ، ولكننا لا نعرف عن هؤلاء الكثير اللهم إلاّ ما صنّفه الزبيدي من النحويين الرستميين خطأ مع العلماء القرويين أمثال الأخوين إبراهيم المهري وأبو عبد الملك المهري ابني قطن [25] .

كما أشار الزبيدي أيضا إلى أبو محمد عبد الله بن محمد المكفوف النحوي من مواليد مدينة سرت التي كانت تابعة للدولة الرستمية وقد قال في شأنه : << كان من أعظم خلق الله بالعربية والغريب والشعر وتفسير المشروحات ... وله كتب كثيرة أملاها في اللغة العربية وله كتاب في العروض يفضّله أهل العلم على سائر الكتب المؤلّفة فيها وتوفي سنة 308 هـ [26] .

5 – الأدب العربي :

يبدو أنّ هذا المجال لم يحض بالاهتمام مقارنة بالعلوم الدينية وربما يعود السبب إلى توجّه الأئمة الرستميين نحو تشجيع العلوم الدينية على حساب العلوم

الأخرى باستثناء الإمام أبي بكر بن أفلح الذي نقل عنه أّ، كان محبا للآداب والأشعار [27] .

أ – النثر : إنّ ما نعرفه عن فنّ النثر في هذه المرحلة لا يتعدّى مجموعة من الخطب أو الوصايا أو الرسائل الديوانية أو أقاصيص تعليمية أو حكم ، ومن أشهر الرسائل الديوانية رسالة الإمام عبد الوهاب إلى جبل نفوسة في مسألة خلف بن السمح [28] ، كما أنّ للإمام أفلح بن عبد الوهاب مجموعة من الرسائل من هذا النوع وجّهها إلى رعيته وعماله بشأن قضية نفاث بن نصر الذي بعث إليه شخصيا رسالة أخرى [29] . وامتازت كلّ هذه الرسائل بإيجاز العبارة وصحة الألفاظ والتسلسل المنطقي وتكشف عن مقدرة الأئمة البلاغية .

ب – الشعر : لا بدّ أنّ الجو الثقافي الذي كان سائدا في تيهرت قد ألهم قارجة العديد من الشعراء الذين ترعرعوا في كنف الدولة الرستمية ، ولكن لم يصل إلينا إلاّ النزر اليسير من القصائد ولعل الفتن والحروب الكثيرة التي شهدتها الدولة لا سيّما في أواخر عهدها كانت السبب في اندثار ذلك التراث . ومن بين ما وصل إلينا قصيدة للإمام أفلح بن عبد الوهاب تقع في أربعة وأربعين بيتا يمدح فيها العلم وأهله ويحث على طلبه فيقول في مطلعها :

العلم أبقى لأهل العلم آثارا   يريك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي وإن مات ذو علم وذو ورع   ما مات عبد قضى من ذاك أوتارا

ثم يقول:

أكرم بهم من ذوي الفضل المبين لهم   سرّ كسى مظلمات الأرض أنوارا
ما ارتاب في فضلهم أولوا العقول وهم   إرث النبوءة في أيديهم صارا

ويقول كذلك :

أشدد إلى العلم رحلا فوق راحلة   وصل إلى العلم في الأفاق أسفارا
واصبر دلج الأعناق معتسفا   مهمامه الأرض أحزانا وأقطارا
حتى تزور رجالا في رحالهم   فضلا فأكرم بأهل العلم زوّارا [30]

ومن الشعراء كذلك سعيد بن واشكل التيهرتي الذي عاش خلال القرن الثالث الهجري وقد نشأ في تيهرت وانتقل إلى مدينة تنس في آخر حياته وليست لدينا معلومات وافية عن أدبه إلاّ قصيدة تقع يقول في بدايتها :

نأى النوم عني واضمحلت عرى الصبر وأصبحت عن دار الأحبة في أسر
وأصبحت من تاهرت في دار معزل وأسلمني مرّ القضاء من القدر [31]

ويعدّ بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي التيهرتي من أعظم شعراء الدولة الرستمية وقد ولد بتيهرت سنة 200 هـ ونشأ فيها ثمّ انتقل إلى القيروان وبعدها إلى المشرق وكان له فيها اتصال بالخليفة العباسيي المعتصم بالله وكانت له هناك مقابلات مع بعض الشعراء أمثال حبيب وضريع ودعبل وعلي بن الجهم ، وأخيرا رجع إلى مسقط رأسه حيث وافته المنية 296 هـ ، وقد ترك قصائد عديدة في مختلف فنون الشعر ومنها قصيدة يمدح فيها حاكم مدينة جراوة أبا العيش عيسى بن إدريس قائلا :

سائل زواغة عن طعان سيوفه ورماحه في العارض المتهلهل
وديار نفزة كيف داس حريمها والخيل تمرغ في الوشيج الذبل
غشى مغيلة بالسيوف مذلّة وسقى جراوة من نقيع الحنظل [32]

وكان له في فن الرثاء قصيدة رائعة يندب فيها ابنه عبد الرحمن الذي قتل وهو برفقتهويقول متلهفا على ابنه :

بكيت لى الأحبة إذ تولوا ولو أمي هلكت بكوا عليا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا وفقدك قد كوى الأكباد كيا
كفى حزنا بأني منك خلو وأنّك ميّت وبقيت حيا [33]

ولبكر بن حماد كذلك قصائد في الزهد والمواعظ ومن ذلك ما روي عنه ابن اللباد قوله :

لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي من جنح ليل يقودها وضوء نهار مازال يسوقها

ويقول عن الموت :

زرنا منازل قوم لن يزورونا   أنا لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا الزاد ويحكم   حل الرحيل فما يرجو المقيمونا [34]

هوامش البحث

[1]–الشماخي أبو العباس أحمد بن سعيد :كتاب السير طبعة حجرية، قسنطينة 1301هـ،ص : 144

[2] – الرجيني أبو العباس أجمد بن سعيد : كتاب طبقات المشايخ بالمغرب ، ج : 2 ، تح : إبراهيم طلاي ، مطبعة البعث قسنطينة 1974 ، ص : 471 .

[3] – إبراهيم بحاز : الدولة الرستمية دراسة في الأوضاع الاقتصادية والحياة الفكرية ، ط : 2 ، المطبعة العربية ،غرداية 1993 ، ص : 266 .

[4]–ابن الصغير :أخبار الأئمة الرستميين، تح: محمد الناصر وإبراهيم بحاز،المطبوعات الجميلة،الجزائر1986،ص:39.

[5]– أبو زكرياء يحيى بن أبي بكر : كتاب السيرة وأخبار الأئمة ، تح :عبد الرحمن أيوب،الدار التونسية للنشر،تونس 1985، ص:102–103.

[6] –الشماخي المصدر نفسه ، ص 193 – 222 .

[7] – الباروني سليمان بن عبد الله : الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الإباضية ، ج 2 ، ط : 3 ، دار البعث ،قسنطينة 2002 ، ص : 315 .

[8] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص : 83 .

[9] الدرجيني : المصدر نفسه ، ج : 1 ، ص : 57 – 58 .

[10]لإبراهيم بحاز : المرجع نفسه ، ص : 299 – 300 .

[11] – أبو زكرياء : المصدر نفسه ، ج : 2 ، ص : 471 .

[12]هود بن محكم الهواري: تفسير كتاب الله العزيز، تح: شريفي بلحاج، 4 ج، دار الغرب الإسلامي ، ط:1 ،بيروت1990.

[13] – إبراهيم بحاز : المرجع نفسه ، ص : 309 – 310 .

[14] – ابن الصغير : المرجع نفسه ، ص : 102 .

[15] – ينظر عبد الوهاب بن عبد الرحمن : كتاب مسائل نفوسة ، تح : إبراهيم طلاي ، المطبعة العربية ، غرداية 1991 .

[16] – مخطوط لم يحقق بعد موجود في مكتبة الحاج صالح لعلي ببني يزقن

[17] – ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص : 84 .

[18] – ينظر المصدر نفسه ، ص : 81 – 110 .

[19] – الشماخي : المصدر نفسه ، ص : 141 – 144 .

[20] – الدرجيني : المصدر نفسه ، ج :2 ، ص : 179 .

[20] – المصدر نفسه ، ج : 2 ، ص : 293 – 295 .

[21] المصدر نفسه ، ج : 2 ، ص : 331 – 332 .

[22] – – إبراهيم بحاز : المرجع نفسه ، ص : 322 – 333 .

[23] – الدرجيني : المصدر نفسه ، ج : 2 ، ص : 320 .

[24] إبراهيم بحاز : المرجع نفسه ، ص : 327 .

[25] – الزبيدي أبو بكر محمد بن الحسن : طبقات النحويين واللغويين، تح:أبو الفضل إبراهيم، ط :1،القاهرة1954،ص:249 – 250 .

[26] – المصدر نفسه ، ص : 249 .

[27] ابن الصغير : المصدر نفسه ، ص : 63 .

[28] الباروني : المرجع نفسه ، ج : 2 ، ص : 196 – 198 .

[29] – المرجع نفسه ، ج : 2 ، ص : 262 – 267 .

[30] – ينظر الباروني : المرجع نفسه ، ج : 2 ، ص : 247 – 254 .

[31]– محمد رمضان شاوش:إرشاد الحائر إلى آثار أدباء الجزائر، مج 2، ط:1، داود بريكسي، تلمسان2002،ص : 28. .

[32] – الباروني : المرجع نفسه ، ص : 90 – 97 .

[33] – المرجع نفسه ، ص : 92 .

[34] – المرجع نفسه ، ص : 94 – 95 .